وقفات مع السياسة الاقتصادية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين

د./ غازي الشمري*

يجب ان لا يتبادر الى الذهن الى اننا نعني بالاصلاح والتحديد في صدر الإسلام والخلافة الراشدة تقويم ما هو معوج وتسديد الشطط والخلل، فذلك ابعد ما يكون عن غرضنا، خاصة والدولة الاسلامية في مرحلة التاسيس، بل نقصد الى تبيان الاساليب الجديدة في التعامل مع المستجدات الاقتصادية، والانحراف الاداري لبعض العمال والولاة واساليب الرقابة والمحاسبة والصرامة، وكيف ان سلوك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين الشخصي كان وما زال مثال القدوة الحسنة والاسوة الطيبة.

وسوف نحاول ان نلتمس الجانب الاقتصادي والسياسية المالية قدر المستطاع خلال فترة حكمهم،وكيف أنهم كانوا مسترشدين بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

لقد عني الرسول (صلى الله عليه وآله سلم) بشؤون الناس وقضايا المجتمع، عناية تامة، وتولى الاسلام المعاملات العامة كما تولى السلوك الفردي بتوجيه وتشريع. فالاسلام ليس في عزلة عن المجتمع وما يجب له من قوانين. وقد بلغ من اهتمام الاسلام بالمجتمع واصلاحه وتجديده وتخليصه من ترسبات ماضي الجاهلية انه عد كل خدمة اجتماعية لونا من العبادة. بل ان خدمة الجماعة هي فوق الشعائر الدينية في معنى العبادة الصحيحة والايمان الخير. يقول الرسول الكرم

* أستاذة محاضرة بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران

(صلى الله عليه وآله سلم) "اصلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام". والواقعة التالية كافية في الدلالة على هذا الاتجاه الصريح في الاسلام. روي عن ابن عباس ان قال: " كنا مع النبي (صلى الله عليه وآله سلم) في سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر. فنزلنا منزلا في يوم حار، اكثرنا ظلا صاحب الكساء . فمنا من يتقي الشمس بيده. فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الابنية وسقوا الركاب. فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) " ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله"1

اليس في ذلك دليل قاطع على ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن ليجيز اقامة الفرائض الدينية على حساب المعاش؟ فما قضية الافطار والصوم بذات الشأن اذا كانت عائقا دون البناء وخدمة الجماعة، ودون النظر في اسباب البقاء وتنظيم السعي تنظيما يقتضي التعاون الجماعي. هكذا آثر الرسول (صلى الله عليه ووآله سلم) الافطار في شهر الصوم مع خدمة الناس، على الصوم في حينه مع العزلة والابتعاد عن العمل المفيد.

ثم أليس في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) " من راى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان"2 اشارة صريحة الى ضرورة الأخذ بما يفيد الجماعة وينفع الناس والى المسؤولية التي تطال المجتمع والفرد في رفع ما يسيئ.

وهناك احاديث نبوية شريفة كثيرة تقطع بان فضل من يخدم الجماعة بسبيل من السبل هو اكثر من فضل العابد الزاهد المصلي. فاذا كان العالم يأتي المجتمع بالخير فلاشك انه يفضل مليون عابد في نظر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما يفضل البدر ملايين الكواكب "فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب". ويعظم النبي (صلى الله عليه وسلم) العقل لانه القوة المبدعة في اكتشاف ما يفيد الناس على الارض تعظيما لا مزيد عليه اذ يقول "تفكير ساعة واحدة خير من عبادة سنة" وورد بلفظ آخر "طلب العلم ساعة خير من قيام ليلة. وطلب العلم يوما خيرا من صيام ثلاثة اشهر"3.

ويبلغ الدين الاسلامي مداه في الاهتمام بالمجتمع وما ينظمه ويحييه وفي توجيه الناس الى الارض والعمل فيها والاستفادة من خيراتها. قال تعالى:" خلق لكم ما في الارض جميعا"4،" والارض وضعها للانام5 وقوله عز وجل " وهو الذي جعل لكم الارض ذلولا، فأمشوا في مناكبها وكلوا من رزقه"6.

ومن اجمل ما دل به الرسول (صلى الله عليه وآله سلم) على تقديسه العمل المثمر هذه الرواية: راى اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله سلم) رجلا جلدا قويا شديد البنية، صلب العضلات يمشي، فتمنوا لو انه وجه هذه القوة وصرف هذه الشدة في الجهاد في سبيل الله. فقالوا حبذا لو كان جلده في سبيل الله. فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله سلم) هذا القول البليغ " ان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وان كان خرج يسعى على صبية صغار، فهو في سبيل الله، وان كان خرج على زوجة يعفها عن الحرام فهو في سبيل الله، وان كان خرج يسعى على نفسه يمنعها السؤال فهو في سبيل الله".

وتروي كتب الحديث الكثير من أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله سلم) التي يقدس بها العمل ويكرم العامل منها " إن الله يحب العبد المؤمن المحترف" و" ما أكل أحدكم طعاما قط خيرا من عمل يده". واذا كان للعمل مثل هذه القيمة، بل هذه القدسية، فعلى العامل أن يتقن ما يعمل، وهو اذا فعل نفع وانتفع وبرر وجوده في المجتمع واحبه الله وقربه اليه. يقول الرسول الكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) " ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا فأتقنه"7.

اذا كان الاسلام يحث على السعي والعمل، وأن الأرض جعلت ذلولا ليمشي في مناكبها الناس ويأكلون من رزقها ويفيدون من خيراتها، لكن ما هو الموقف من توزيع هذه الخيرات التي تفيض بها الأرض؟

هل هي من حق فئة من الناس دون فئة؟ ام انها توزع على اساس الجهد والصنيع والحاجة؟ هل هذه الخيرات احتكارا للملوك والأمراء والأثرياء

والغاصبين؟ أم هي حقوق عامة يتعاون المجتمع على توزيعها توزيعا عادلا يمسك عليه بناءه القويم؟

ينظر الإسلام إلى الجماعة نظرة منطق وعدل لا يهون بها من الجماعة احد. ولا يعلو احد البناء على جهد، ولكل جهد مكافأة، من واجب المجتمع ان يقرها. فليس من صفة المجتمع المستقيم ان يجوع فيه العامل ويتخم فيه البطر الكسول الخداع، وليس من صفة المجتمع ان يهون عليه جهد العامل، وان يأتي الذي لا يعمل بخيرات الارض — كما هي الحال في المجتمعات القديمة التي سبقت الاسلام وعلى باب التخصيص في المجتمع الجاهلي. وترى ان الاسلام حرم الترف، باصرار كثير، في مجتمع يكون معظم افراده فقراء، حرم الترف الذي يقابله في الجماعة العوز والحاجة، مدركا ان هذا الترف في مثل هذا المجتمع، لا يكون بهذا الجانب الا ليكون الحرمان بالجانب الاخر، وبما انه ليس من حق انسان ولا من شرفه ان يستثمر جهد انسان، وبما ان الترف والاسراف المفرطين لا يتمان في المجتمع المعوز الا بهذا الاستثمار، فان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يسمي بيوت المترفين "بيوت الشياطين". وقال عز من قائل:" وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تسكن بعدهم الا قليلا"8 ويحارهم الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم بقوله عز وجل:" واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"9. وكي لا يكون الغبن الى جانب الغنم في المجتمع الواحد، والحاجة الى جانب التخمة، يسعى الاسلام في تهديم الطرق المؤدية الى هذا الانحراف، وهي ما تنطوي تحت أسماء الاحتكار والاستثمار والاقتطاع والنصب وما اليها.

ان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) اقام مجتمعا وفق الاسس والمبادئ الاسلامية، وفي مرحلة البناء والتاسيس حارب الاحتكار والاستغلال غير المشروع وانزلهما منزلة المحرمات. قال في الاحتكار "من احتكر فهو خاطئ"، وفي الغصب والاقتطاع يقول مهددا بهذا العقاب الرهيب " من ظلم من الارض

شيئا طوقه من سبع ارضين" ويقول ايضا " من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان"10.

اما الاستغلال فكان شكله الظاهر آنذاك: الربا على انواعه، وفيه يقول الله تعالى:" لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة 11، وفي آية اخرى " وأحل الله البيع وحرم الربا"12،و يمضي في تهديد المرابين والتشديد عليهم منعا لما قد يجره من استغلال الناس للناس، والعدل الاجتماعي يقضي " أن ليس للإنسان الا ما سعى"13، فكيف تتكون طبقة كبار الاثرياء، ان لم يكن من النصب واحتكار المنافع في غالب الاحيان، وجعل المال في مقاييس المجتمع مساويا للانسان في القيمة والعطاء، او هو فوق الانسان. اما الجريمة الاجتماعية الكبرى، فهي ان يتواطأ المحتكرون والحكام على اغتصاب الشعب واكل جهوده بالاثم، قال تعالى:" ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون"14، وفي سورة الزلزلة يقول :" فمن يعمل مثقال ذرة شرا يره"15، وقوله سبحانه وتعالى:" كل نفس بما كسبت رهينة"16.

أما المال، فالرغم من أنه مقرر في ملكية الافراد، لا يجوز ان يحبس في ايدي فئة معينة من الناس فتتداوله وتحتكر به المنافع والجهود وتذل العامة، وتحكم به في رقاب العباد، وتشتري به الذمم. يقول الله تعالى في محكم تنزيله :" كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم"17. فالمال في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مال الجماعة أولا، ولا ينال منه الافراد الا بقدر أخذ من حاجتهم اليه ومن سعيهم في سبيله لذلك حرم في الاسلام ان يستغل الفرد جهد الاخرين اقل استغلال. كما حرم ان يجمع منه جامع فوق ما يحتاج اليه، وقد جعل الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) هذين المبدأين اساسا في سياسته المالية، وضرب لاصحابه الامثال بسيرته واقواله على ما يجب عليهم اتباعه من هذا القبيل.

لقد كان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) المثال والقدوة لمن جاء من بعده من الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) في معالجة السياسة المالية والازمات الاقتصادية، والعمل على ايجاد الحلول المناسبة لها، اما بالاجراءات العملية او بالتوجيهات الشفوية للعمال والولاة وغيرهم.

وعلى الرغم من قصر الفترة الزمنية التي استمر فيها ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) خليفة للمسلمين (11–13هـ) الا انها كانت حافلة بالاحداث الجسام، وخاصة منها حروب الردة، التي كادت ان تعصف بكيان الدولة الفتية لولا ان تداركها الله برحمته، ولولا الارادة القوية للخليفة، وسرعة اتخاذ القرارات المناسبة في التصدي لها والقضاء عليها، بالاضافة الى التفاف الصحابة رضي الله عنهم حوله ودعم الامة له.

وقرر رضي الله عنه أخذ زمام المبادرة، وتوجه لمحاربة المرتدين شخصيا، وقد كان قد تقدمت به السن فأخذ علي كرم الله وجهه بزمام راحلته، وقال له عندما رآه خارجا إلى ذي القصة حين ارتدت العرب : إلى أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ أقول لك شم سيفك لا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام فرجع وأمضى الجيش .

حاول بعض المرتدين ان يرجع اسباب الردة الى الاباء والانفة من دفع الزكاة والصدقة، لانها تشكل اهانة، قال قرة بن هبيرة لعمرو بن العاص: " يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة، فان عفيتموها من أخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع، وان ابيتم فلا تجتمع عليكم" فأجابه عمرو:" أكفرت يا قرة"18.

هذا الفهم الخاطئ والتفسير السقيم للزكاة والصدقة على أساس انها جبايات غير شرعية، يؤدي الى رفض ما جاء به القرآن الكريم ورفض لركن هام من اركان الاسلام.

وترد إشارات عديدة في المصادر التاريخية عن مجموعة من الاجراءات الاقتصادية اتخذت في هذه الفترة، يأتي في مقدمتها انه (رضي الله عنه) ساوى في

قسمة الاموال والغنائم بين السابقين والمتأخرين في الاسلام وبين الحر والعبد والذكر والانثى، فقيل له: لتقدم أهل السبق على قدر منازلهم، فقال انما اسلموا لله. ووجب أجرهم عليه، يوفيهم ذلك في الآخرة، وانما هذه الدنيا بلاغ19.

وكان (رضي الله عنه) يشتري الاكسية في الشتاء ويفرقها في الارامل. وهذا ليس غريبا عنه وهو الذي انفق في سبيل الله عندما أسلم أربعون الف دينار مع ما كسب من التجارة.

ولما حضرته الوفاة قال لعائشة (اني كنت قد نحلتك حائط (بستان) كذا، وفي نفسي منه شيئ فرديه على الميراث فردته، وقال انا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ولكنا أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين الا هذاالعبد وهذا البعير وهذه القطيفة (وكانت لا تساوي اكثر من خمسة دراهم)، فاذا مت فابعثي بالجميع الى عمر. واوصى ان تباع له ارض ويصرف ثمنها عوض ما اخذه من مال المسلمين كخليفة عليهم، وهو أول وال فرض له، رعيته نفقته وهي ستة آلاف درهم سنويا، نظير تفرغه لاصلاح أمور الناس والنظر في شؤونهم وتركه التجارة.

ولما توفي رضي الله عنه جمع عمر الامناء وفتح بيت المال فلم يجدوا فيها شيئا غير دينار سقط من غرارة.

في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في سنة 18 للهجرة على ما يذكر محمد بن اسحق وابو معشر السندي واليعقوبي والطبري وابن كثير "أصاب الناس جدب وقحط ومجاعة شديدة. وسميت عام الرمادة "لان الارض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيها بالرماد وقيل لانها تسفي الريح ترابا كالرماد، وحفلت الاحياء الى المدينة، و لم يبق عند أحد منهم زادا فلجأوا الى أمير المؤمنين.

وتعود أسباب الازمة الاقتصادية الى قلة المطر وشحته كما ذكر الطبري وغيره. قال الطبري (أصابت الناس مجاعة 19 شديدة ولزبة وجدوب وقحوط، وذلك هو العام الذي يسمى عام الرمادة)20.

ويرجع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب سبب الازمة الى ان الارادة الالهية شاءت ان تحبس المطر عن الناس بسبب عدم تمسكهم بما أمر به الله تعالى.

كتب ابو عبيدة الى عمر: ان نفرا من المسلمين أصابوا الشراب، منهم ضرار وأبو جندل فسألناهم فتأولوا، وقالوا خيرنا فأخترنا، قال: "فهل انتم منتهون" و لم يعزم علينا، فكتب اليه عمر: فذلك بيننا وبينهم:" فهل انتم منتهون" يعني "فأنتهوا" وجمع الناس، فأجتمعوا على أن يضربوا فيها ثمانين جلدة، ويضمنوا الفسق من تأول عليها بمثل هذا، فان ابى قتل. فكتب عمر الى أبي عبيدة ان ادعهم، فان زعموا انها حلال فأقتلهم، وان زعموا انها حرام فأجلدهم ثمانين جلدة، فبعث اليهم فسألهم على رؤوس الناس، فقالوا حرام، فجلدهم ثمانين ثمانين، وحد القوم، وندموا على لجاجتهم،...فحدثت الرمادة"21.

تميز عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ببراعته وحنكته الادارية واحاطته بشؤون الرعية بنفسه مباشرة، حيث كان يرى ماشيا في الاسواق ويعس بالليل ويضع نفسه في الظروف التي تكفل له ان يعيش ذات الاوضاع التي تحياها الرعية: فأحس بمشاكل الناس ووضع لها الحلول المناسبة.

لقد عس بالمدينة ذات ليلة في عام الرمادة فلم يجد احدا يضحك ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة، و لم يرى سائلا، فقام باجراءات منها خاصة واخرى عامة.

اختط عمر لنفسه منهجا خاصا كي يقتدي به الناس، وهي حياة تتسم بالزهد والتقشف الى درجة افقر شخص في المجتمع، فاخذ على نفسه في عام الرمادة ان يحيا كما يحيا الناس في ذلك العام الجدب، حيث قال:" كيف يعنيني شأن الرعية اذا لم يعنيني ما أصابهم".

ويروي ابن سعد في طبقاته ان عمرا (رضي الله عنه) اتى عام الرمادة قصعة فيها خبز مفتوت بسمن فدعا اعرابيا يأكل معه فجعل الاعرابي يتتبع باللقمة الودك، فقال له عمر كأنك مقفر من الودك فقال الاعرابي أجل ما اكلت سمنا

ولا زيتا ولا رأيت أكلا له مذ كذا وكذا قبل اليوم، فحلف عمر لا يأكل سمنا ولا لحما حتى يحيا الناس من اول ما احيوا22.

ان تقشف عمر لم يكن مجرد عبادة وانما منهجا للرعية من ناحية ووسيلة للاحساس بمشاكلها من ناحية اخرى، ومبدأه في ذلك قوله تعالى:"أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون"23.

اخذ عمر في معالجة الازمة وتعبئة الرعية اقتصاديا لمواجهة المشاكل الاقتصادية، فبدأ بنفسه أولا وقبل كل شيئ، أدرك منذ اللحظة الاولى خطورة القدوة الحسنة من ولي الامر، فألزم نفسه ان لا يأكل سمنا ولا سمينا حتى يكشف ما بالناس فأسود لونه وتغير جسمه حتى كاد يغشى عليه من الضعف.

ان جزءا من قوة الاقتصاد تستمد من قوة النظام السياسي، ويشكل التنظيم والتحديد والاصلاح عادة وسيلة لضمان بلوغ العمل اهدافه، وكذلك فالامر يتطلب تحفيز كل الاطراف للتفكير بايجاد الصيغ الاكثر صلاحية في تنظيم العمل وللوفاء بمتطلباته وتحقيق اهدافه وبما يتناسب مع الظروف مرحليا واستراتيجيا.

قال الشافعي ان رجلا من العرب قال لعمر حين ترحلت الاحياء عن المدينة: لقد انجلت عنك وانك لابن حرة. اي واسيت الناس وانصفتهم واحسنت اليهم.

ويذكر الطبري ان رجلا من مزينة راى فيما راى النائم ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له ائت عمر فأقرئه مني السلام وقل له: ان عهدي بك وانت وفي العهد، شديد العقد، فالكيس الكيس. فدخل عليه فأخبره الخبر، فخرج فنادى في الناس وصعد المنبر، وقال انشدكم بالذي هداكم للاسلام، هل رأيتم مني شيئا تكرهونه، قالوا اللهم لا، قالوا ولم ذلك فأخبرهم، فقطنوا ولم يفطن فقالوا انما استبطأك في الاستسقاء، فاستسق بنا، فنادى في الناس، فقام فخطب فاوجز، ثم صلى ركعتين فاوجز، ثم قال اللهم عجزت عنا

انصارنا، وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزت عنا انفسنا، ولا حول ولا قوة الا بك، اللهم فاسقنا، واحي العباد والبلاد.

ويذكر ابن الأثير في حوادث السنة الثامنة عشر للهجرة أن عمر بن الخطاب " أخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن دموع العباس لتتحادر على لحيته فقال : إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وآله وسلم وبقية آبائه وأكبر رجاله فإنك تقول وقولك حق : " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة " فحفظتهما بصلاح آبائهما فاحفظ اللهم نبيك صلى الله عليه وآله وسلم في عمه فقد دلونا به إليك مستشفعين مستغفرين .ثم أقبل على الناس فقال: استغفروا ربكم إنه كان غفارا ".

ويروي ان عمر (رضي الله عنه) خرج يستسقي فلم يزل رافعا صوته:" اللهم اغفر لنا، انك كنت غفارا" حتى اتى المصلى يستسقي ويدعو الناس معه، فاستجاب الله له وللمسلمين فاغاث عباده. فقال عمر حين انزل الله عليه الغيث "الحمد لله، فو الله لو لم يفرجها الله ما تركت أهل بيت من المسلمين لهم سعة الا أدخلت عليهم اعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان يهلكا من الطعام على ما يقيم واحدا"24.

وهذا قول صريح ومنهج واضح جديد في حياة الامة ودليل عمل اقتصادي في معالجة الازمات باشتراك الناس فيما بينهم وبمسؤولية الدولة وتدخلها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ويروي ان عمر (رضي الله عنه) قرأ قوله تعالى: "استغفروا ربكم انه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا" ثم قرا : "استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم"25.

ثم لجأ عمر الى الانفاق من بيت المال مما فيه من الاطعمة والاموال حتى نفذ، وكتب الى ولاته بالامصار ومنهم ابو موسى الاشعري أمير البصرة وعمرو

بن العاص بمصر، وسعد بن ابي وقاص بالكوفة وابا عبيدة في الشام، وعثمان بن ابي العيص باليمامة والبحرين وحذيفة بن محصن في عمان ان " يا غوثاه لامة محمد (صلى الله عليه وآله سلم)".

ويشكك ابن كثير في ورود اسم عمرو بن العاص في حوادث سنة 18هـ- عام الرمادة. كتب يقول: (لكن ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل، فان مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة، فاما ان يكون عام الرمادة بعد سنة ثماني عشرة، او يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة وهم والله اعلم)26.

لقد كانت الاستجابة سريعة لنداء عمر ووصلت الى المدينة المنورة قوافل عظيمة تحمل الخيرات من الولايات والامصار الاسلامية ففرقت في الاحياء.

لعل من اهم الوسائل التي ساعدت عمر على انجاز مهمته وخروج الامة من الازمة، بالاضافة الى الرحمة الالهية، هي ان الاسلام جاء للامة بالبساطة والتقشف والبعد عن الانغماس في الترف المادي ورضى افرادها بالكفاف، وبجانب هذا وذاك هيأ الله سبحانه وتعالى لها القيادة والقدوة الحسنة. ومما هو ثابت ان القادة في العالم يختلفون في الطرق التي يلجأون اليها في تصريف الشؤون العامة،و يتاثرون بعوامل عدة، وان من عوامل النضج السياسي يقتضي الفهم التاريخي الذي من أهم مقوماته، أن تفهم تطورات السياسة بعقلية تاريخية.

تذكر المصادر التاريخية ان عمرو بن العاص أصلح بحر القلزم (الاحمر) وارسل فيه الطعام الى المدينة المنورة، فصار سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر، ولم ير اهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس البحر مع مقتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فذلوا وتضاروا.

وكان عمرو بن العاص قد بعث كتابا جوابيا الى عمر بن الخطاب يعلمه ان البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حفيرا فصب في بحر العرب، فسده الروم والقبط، فان احببت ان يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهرا وبنيت له قناطر، فكتب اليه عمر ان افعل وعجل ذلك.

لابد من التنويه هنا الى ان القحط والجدب والجفاف أصاب بلاد الحجاز فقط وليس عامة البلاد الاسلامية، لذلك بادرت الامصار الى مد يد العون والمساعدة لتجاوز الازمة، وان المقصود بالحفير في الفقرة السابقة هي قناة مائية لتسهيل مرور السفن والبواخر وصولا الى الحجاز.

ويذكر الطبري ان أهل مصر بينوا هذا إن تم ذلك فان فيه انكسارا لخراج مصر وخراجها، فكتب عمر لعمرو بن العاص اعمل فيه وعجل، اخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها، فعالجه بان شق القلزم، ولم يزد ذلك مصر الا رخاء. ولم ير اهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس عنهم البحر مع مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذلوا وتقاصروا وخشعوا27.

لقد ترك عمر بن الخطاب الناس عام الرمادة، لم يأخذ منهم الصدقة، فلما كان العام المقبل لأرسل اليهم فأخذ عقالين، فقسم فيهم عقالا وحط اليه (بيت المال) عقالا.

وعندما جاء المدينة حاجا أُتي بمال فقسمه بين فقراء المهاجرين، ثم قال " ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بالجنة، فاعطاهم كلتيهما، والذي نفسي بيده لولا أن الله أغناكم بخزائن من عنده، لجعلت آتي الرجل فآخذ فضل ماله من عنده، فأقسمه بين فقراء المهاجرين".

وخطب مرة فقال:" ايها الناس كتب عليكم ثلاثة اسفار، كتب عليكم الحج والعمرة وكتب عليكم الجهاد، وكتب عليكم ان يبتغي الرجل بماله وجه من الوجوه في سبيل الله، والمستعين والتصديق، فو الذي نفسي بيده لان اموت وان ابتغي بنفسي ومالي في وجه من هذه الوجوه في سبيل الله احب الي من ان اموت على فراشي، ولو قلت انها شهادة، رايت انها شهادة.

و ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه خطبة عمر رضي الله عنه عندما شيع جيش سعد، وهي مشتملة على حكم ومواعظ ونصائح من قائد عظيم يريد نفع أمته واصلاح حال العالم أجمع "ان الله تعالى انما ضرب لكم الامثال وصرف لكم

القول ليحيي به القلوب، فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله. من علم شيئا فلينتفع به، وان للعدل امارات وتباشير. فاما الامارات فالحياء والسخاء واللين، واما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل امر بابا، ويسر لكل باب مفتاحا. فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال؛ والزهد اخذ الحق من كل احد قبله حق وتادية الحق الى كل احد له حق، ولا تصانع في ذلك احدا واكتف بما يكفيه من الكفاف، فان لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء، اني "بينكم وبين الله، وليس بيني وبينه احد، وان الله قد الزمني دفع الدعاء عنه فافوا شكاتكم الينا فمن لم يستطع فالى من يبلغانها ناخذ له الحق غير متعتع"28.

كان عمر (رضي الله عنه) مثال الزهد والتقشف والكفاف، وحاول ان يربي المجتمع على هذه الصفات سعيا وراء تحقيق عدالة اجتماعية لا يظهر فيها التمايز الطبقي بصور فاضحة سواء في المركب او المأكل أو الملبس والسكن، لذلك وجدناه يرمي ولاته يزيد بن ابي سفيان وخالد بن الوليد وابو عبيدة بالحجارة عندما وجدهم في استقباله في الشام على الخيول عليهم الديباج والحرير، قائلا:" ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم، اياي تستقبلون في هذا الزي، وانما شبعتم منذ سنين، سرع ما ندت بكم البطنة. وتالله لو فعلتموها على راس المائتين لاستبدلت بكم غيركم"29.

وعندنا قدم بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه قال عمر ان اقواما ادوا هذا لذوو امانة فقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه: انك عففت فعفت الرعية.

ومن الاجراءات الاقتصادية اعطائه العطايا على السابقة في الاسلام لا على الاحساب والانساب، فبدأ بالعباس بن عبد المطلب عم الرسول (صلى الله عليه وآله سلم) ثم الاقرب حتى انتهى الى ان سوى في العطاء بين نساء المسلمين بعد نساء اهل القادسية، وجعل للصبيان مائة درهم. ثم جمع ستين مسكينا واطعمهم الخبز فاحصوا من اكلوا فوجدوه يخرج من جريبين، ففرض لكل انسان منهم ولعياله جريبين في الشهر.

كان عمر (رضي الله عنه) يعمل في التجارة قبل استخلافه، فلما اصبح خليفة للمسلمين انقطع عن ذلك فقال:" اني كنت امرأ تاجرا يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بامركم هذا، فما ترون انه يحل لي في هذا المال؟ فاكثر القوم وعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه ساكت. فقال ما تقول يا علي؟ قال : ما اصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره. فقال القوم: القول ما قال علي، فأخذ قوته

ولا تشير المصادر التي بين أيدينا إلى إجراءات اقتصادية معينة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلا تلك التي أثارت عليه العامة وكانت من أسباب الفتنة الكبرى التي أدت إلى استشهاده في سنة 35هـ، ويذكر الطبري في تاريخه أن أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله" إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وأن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، وإن اعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين، فيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم .

وذكر أمراء الأجناد في سنة 24 هـ أي بعد عام من خلافته بأنهم حماة المسلمين والمدافعين عنهم " ولا يبلغني عن أحد منكم تغييرا أو تبديلا فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه" وهوفي هذا يؤكد حرصه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشدته في المراقبة والمحاسبة ويبدو هذا جليا عندما توجه بخطاب إلى عمال الخراج يؤكد فيه على اتباع الحق " خذوا الحق وأعطوا الحق به والأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلا ما اكتسبتم والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم "

و لم يبتعد علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن عمر بن الخطاب في اتباع سنة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله سلم) في معالجة الامور المستجدة وتجديد بناء المجتمع الاسلامي.

في سبيل هذا البناء في الفرد والجماعة وقف علي من محبيه ومبغضيه على السواء، موقف المصمم الحازم، لا يقهره مطمع في غير الحق، ولا يزعزه عما هو عليه وعد أو وعيد. وكان يعلم حق العلم ان ذاك ثقيل على بعض الناس فيقول:" ان امرنا صعب مستعصب" وكان يعلم حق العلم ان ذاك ثقيل على الولاة خاصة، فيقول" والحق ثقيل على الولاة...و كل حق ثقيل".

ولكن سواء عند ابن ابي طالب أثقل الحق على الولاة والوجهاء أم خف، فان عقله وضميره جميعا يامران وما لغيرهما شان لديه، وهما يأمران بان لا يهمل الظامئون الى العدل الاجتماعي والا يهون على المشترع والحاكم امرهم فيعانوا من الحاجة من يذلهم فيلصقهم بالارض، ويقاسوا من الجوع ما تجف به حلوقهم وتستعر اجوافهم، ويحرقوا بحر الهجير واجة الليل، او يفرقوا تحت سوط الرياح في زمهرير الشتاء وهما يأمران بأن لا تترك خيرات الأرض في أيدي المتخنين والمترهلين الآكلين على شبع والشاربين على غير ظمأ، المتبذخين باموال العامة على غير جهد وغير بلاء.

ان علي كرم الله وجهه لن يغتفر جريمة الاحتكار ونهب اموال الرعية، ولايغتفر لطبقة المحتكرين ان يظلموا العامل والكادح والمستضعف بخبزهم ومائهم. ان الظلم بألوانه لعنة على لسان ابن ابي طالب، غير ان افحشه هو ظلم القوي للضعيف والمحتكر للعامة والحاكم للمحكوم.

و الادلة التي تقيم الحجة الصريحة على المستغلين والغاصبين في أدب علي كثيرة وافية، فاني اتجهت في "نهج البلاغة" تحس تلك الحرقة التي تلهب اقوال علي ساعة يتحدث عن الاستغلال والغصب ويكاد يتحدث عنهما في كل خطبة له وفي كل مقال. وفي أقواله جميعا ما يدل على انه واثق بأن الغصب جريمة

اجتماعية والمستغل مجرم أيا كان. وان جمع المال من طرقه غير الشرعية والطبيعية، له تبعات جسام تلزم صاحبها على كل حال.

يقول عن جامع المال:" ويتذكر أموالا جمعها واغمض في مطالبها- اي لم يفرق بين حلال وحرام- واخذها من مصرحاتها ومشتباتها، وقد لزمته تبعات جمعها". اما كسب الحلال الذي لا يد فيه لاستغلال او احتكار فيقول علي في صاحبه " من مات من كسب الحلال، مات والله راض عنه" لذلك عزم علي على اصلاح الامور ودك ما ارتفع من حصون الاحتكار واستغلال النفوذ ونهب الارزاق وسائر ما شيده أولئك الاثرياء الذين يقول في امثالهم:" وأما الاغنياء من مترفه الامم فتعصبوا لاثار مواقع النعم"31.

ان المال والارض والخيرات الناجمة عنهما، ليس لاحد فيها نصيب اكثر من سواه في مذهب علي الا بجهد وحاجة. ومن ابى هذه الحقيقة فقد خان الشعب " واعظم الخيانة خيانة الامة "، في نظر الامام. ومن خان الامة فلا راي له، ولا شأن لموقفه من الخليفة الجديد. لذلك هو عازم على ان يعمل بما يحفظ لهذه الامة حقوقها. وهو لا يخشى موقف النافذين منه ولا قولهم فيه. ولا هو يأبه للحاقهم بأخصامه ومحاربيه.

خطب يقول:" ايها الناس، الا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الانهار، وركبوا الخيول، واتخذوا الوصائف المرققه، اذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم الى حقوقهم التي تعلمون: حرمنا ابن ابي طالب حقوقنا. الا وايما رجل من المهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى ان الفضل له على سواه بصحبته، فان الفضل غدا عند الله، فانتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لاحد على احد"32.

ان العبادة في مذهب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ليس من شانها ان تجعل الانسان متنكرا للحياة العامة، وكما ان الدين هو المعاملة، وسلامة العقيدة هي سلامة المسلك، فكذلك لابد من ان تسخر الانظمة والقوانين لتسيير

الحاجات المادية للكافة ورفع الحاجة عنها حتى لا يهون المرء على نفسه ولا هون عليه دنياه. ورفع الحاجة عن الشعب واجب على المشترع والحاكم لا منة، وهو بالنسبة للشعب حق لا سؤال.

وقد يضطر الى تمديد بعض الولاة باشد العقوبات اذا هم خانوا من مال الشعب شيئا صغيرا او كبيرا. وقد يبلغ التوجع في نفسه مبلغا عظيما اذا ادركه احدهم ان واليا او عاملا بات على غصب او احتكار، فاذا به يوجه اليه قولا تملؤه عصبية الحق وثورة العدل.

كتب الى احد عماله يقول:" بلغني انك جردت الارض، فاخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك"33.

وتأمل في قوله " فارفع إلي حسابك" فوراءه في جملة ما وراءه، ايمانه المطلق بضرورة الانصاف حتى انه لا يرى مكانا للاطالة والتعليل والامهال. هذا الايمان يجمع في ومضة خاطفة الفهم العميق لواقع المجتمع المتارجح بين حق مهضوم وآخر مطلوب، الى ادراك ما قد ينجم عن ذلك من انهيار خلقي واجتماعي في الغاصب والمغصوب على السواء، الى الثقة الكاملة بضرورة اقامة العدل، وليقع هذا في نفوس الاعوان حيث وقع.

كل ذلك على عصبية تابى فتغضب فتوجز قائلة "فارفع الى حسابك".

وبعث على عجل الى عامل آخر بلغه انه ياكل ما تحت يديه من اموال العامة" فاتق الله وارددِ الى هؤلاء القوم اموالهم. فانك ان لم تفعل ثم امكنني الله منك لاعذرن الى الله فيك. والله لو ان الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بارادة حتى أخذ الحق منهما، وازيل الباطل عن مظلمتهما"34.

و من كتاب له كتبه لمالك بن الحارث الاشتر النخعي رحمه الله لما ولاه على مصر واعمالها حين اضطرب امر اميرها محمد بن ابي بكر الصديق (رضي الله عنهما) وهو اطول عهد كتبه: " وتفقد أمر الخراج بما يصلح اهله، فان في اصلاحه وصلاحهم

صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم، لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لان ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد و لم يستقم أمره إلا قليلا .. فان شكوا ثقلا او علة او انقطاع شرب او بالة (يقصد المطر)، او احالة ارض اغتمرها غرق، او اجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم، ولا يثقلن عليك شيئ خففت به المؤنة عنهم، فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، فربما حدث من الامور ما اذا عولت فيه عليهم من بعد، احتملوه طيبة انفسهم به، فان العمران محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من اعواز اهلها، وانما يعوز اهلها لاشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر"35.

الملاحظ على كتابات علي كرم الله وجهه انها برنامج عمل اصلاحي، للولاة والعمال، غايته العدالة الاجتماعية وتطبيق مبادئ الاسلام. كان يتشدد في ضرورة الرفق بالرعية، والتخفيف عن كواهلهم. كتب الى احد عماله على الخراج يقول" فانصفوا الناس من انفسكم واصبروا لحوائجهم فانكم خزان الرعية ووكلاء الامة وسفراء الائمة. لا تحشموا احدا عن حاجته (اي لا تغضبوا طالب حاجة) ولا تحبسوه عن طلبته ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدا، ولا تضربن احدا سوطا لمكان درهم ولا تمسن مال احد من الناس من مصلي ولا معاهد". اي انه ينهاهم ان يبيعوا لارباب الخراج ما هو من ضروراتهم كثياب ابدانهم وكدابة يعتملون عليها، وكعبد لابد للانسان منه يخدمه ويسعى بين يديه. ثم نهاهم عن ضرب الناس لاستيفاء الخراج.

هذه النظرة القائمة على هدي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، هذه النظرة الى احوال الارض وتراوحها بين العمارة والخراب، وترتيب صلاح الدولة على صلاح احوال الرعية، التي قامت عليها سياسة الخلفاء الراشدين، هي من الصحة والدقة بحيث ان العلوم الاقتصادية والاجتماعية تؤيدها اليوم، رغم انقضاء عهد اصحابها منذ قرون عديدة.

الهـــامـــش

111- -1- احمد بن حنبل.المسند.مسند المكثرين. بيت الافكار الدولية، الرياض 2003
112- -2- ابن ماجه، السنن. المقدمة، باب فضل العلماء والحث عن طلب العلم، ج1،ص81.
113- -3- الشوكاني. الفوائد المجموعة. كتاب الفضائل، في فضائل العلم مما لا يصح.
114- -4- البقرة. الآية 29.
115- -5- الرحمن. الآية 10.
116- -6- الملك. الآية 15
117- -7- ابن حجر العسقلاني. فتح الباري، كتاب البيوع. باب كسب الرجل وعمله بيده. مجلد1،ص 1134
118- -8- القصص. الآية 58.
119- -9- الاسراء. الآية 16.
120- -10- ابو داود. سنن ابي داود. كتاب البيوع والاجارات. باب النهي عن الحكرة.ص533-534.
121- -11- آل عمران. الآية 130.
122- -12- البقرة. الآية 275.
123- -13- النحم. الآية 39.
124- -14- البقرة. الآية 188.
125- -15- الزلزلة. الآية 7
126- -16- المدثر.الآية 38.
127- -17- الحشر. الآية 7
128- -18- الطبري. تاريخ الامم والملوك. دار الكتب العلمية. بيروت 1997. المجلد الثاني،ص 263.
129- -19- ابن الاثير. الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي. بيروت (بدون تاريخ) ج2،ص290
130- -20- ابن كثير. البداية والنهاية. مكتبة المعارف ط5 بيروت 1984، ج7،ص90.
131- -21- الطبري، مصدر سابق، ص507.
132- -22- ابن سعد. الطبقات الكبرى، دار صادر،بيروت1985. ج3،ص313.
133- -23- الاحقاف. الآية20
134- -24- ابن شبة البصري. تاريخ المدينة المنورة. تحقيق فهيم محمد شلتوت. جدة 1983،ص739.
135- -25- هود. الآية 52.
136- -26- ابن كثير. المصدر السابق،ص90.
137- -27- الطبري المصدر السابق ص509.
138- -28- نفسه ص 527.
139- -29- ابن الأثير. المصدر السابق ج2، ص 348، الطبري، ص 448.
140- -30- الطبري. المصدر السابق، ص 590-591.
141- -31- ابن ابي الحديد. شرح نهج البلاغة. دار الاندلس. بيروت 1983، المجلد الاول،ص 310.
142- -32- نفسه،ص 369.
143- -33- نفسه،ص485.
144- -34- نفسه، المجلد الثاني،ص30.
145- -35- نفسه، المجلد الثاني،ص 234.

رسالة المغيلي إلى سلطان كانو
"تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين"
تصنيف الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 903هـ-1503م)

تحقيق أ.د.: محمد فرقاني *

نبذة مختصرة عن حياة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد.

هذه رسالة مهمة للإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي تنوعت مؤلفاته وتعددت تتدرج ضمن رسائل الأحكام السلطانية، الذي كان شاهدا بما كتب فيها على محمد رمفا ملك أرض "كانو" بالسودان الأوسط مؤديا لوظيفة واجب النصيحة والتوجيه الواجبة على العلماء لولاة أمر المسلمين، فكانت أشبه بدستور أو خلاصة جامعة لأمر الدين والدنيا كما تبين ذلك أبوابها.

1- نسبه ومولده: هو أبو عبد الله، محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ينسب إلى قبيلة مغيلة البربرية التي كانت تستوطن ضواحي مدينة تلمسان في الغرب الجزائري حاليا. ولد في تاريخ غير معروف على التحديد من عائلة عريقة النسب مشهورة بالعلم والدين.

* أستاذ محاضر بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران